

التنمية المستدامة من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية

الدكتورة: كريمة عرامة

جامعة باحي مختار بعنابة- الجزائر

البريد الإلكتروني: k.arama@yahoo.com

ملخص:

كثيرا ما تطرح إشكالية مواكبة الفكر الإسلامي لمتغيرات العصر، وكثيرا ما يلجأ الباحثون إلى إجابات لا تفي بالغرض ولم تكتمل لتقدم مفهوما مبني على أسس منهجية، يمكن أن يساهم في تقديم حلول لمشكلات العصر، ومع ذلك لا يمكن أن ننكر بان هناك محاولات جادة بدأت تمهد لهذا المفهوم، خاصة تلك الدراسات التي تربط قضايا العصر بمقاصد الشريعة والتفكير المقاصدي.

وقد أصبح هذا التوجه يمثل حافزا للتفكير والتعمق لكشف غايات المشرع، ومرتكزا في تطوير الفكر الإسلامي بما يجاري الواقع المتغير كما جعل المقاصد تمثل أيضا المرتكز المعرفي للمشروع الإسلامي المعاصر، ومن هنا كانت هذه المداخلة حول مفهوم التنمية المستدامة من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية على أساس أن التنمية المستدامة من أكثر قضايا العصر المثيرة للجدل والإشكاليات من قبيل ماذا يستطيع الفكر الإسلامي أن يقدم للمساهمة في صياغة نظرية جديدة في التنمية المستدامة؟

وتهدف هذه الدراسة إلى محاولة تقديم مفهوم للتنمية المستدامة من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية، من خلال سؤق ما يساعد على تقديم الرؤية الإسلامية والمقاصدية لهذا المفهوم، والتركيز على أهمية العلم بالمقاصد الذي يتأكد من خلاله أن الاهتمام بتجديد الفكر الإسلامي والتأصيل الشرعي لقضايا العصر لا يمكن أن يحدث بعيدا عن مقاصد الشريعة الإسلامية و من خلال التحدث عن المقاربة المقاصدية للتنمية المستدامة أين يتم الإشارة إلى بعض المحاولات الجادة التي أكدت أن هذا التأسيس هو تأسيس منطقي وطبيعي لا شترار ما ترمي إليه كل من المقاصد والتنمية المستدامة، أما العنصر الرابع فقد أردته مكملا للعنصر الثالث وكان حول نظام الأولويات في الإسلام كمقوم للتنمية المستدامة والذي يعد الموجه الأساسي للتنمية المستدامة من منظور إسلامي .

الكلمات المفتاحية: تنمية - تنمية مستدامة - مقاصد الشريعة.

Résumé :

La problématique de la capacité de la pensée islamique à gérer les changements de cette époque ; se pose souvent .et cela malgré que les tentatives des chercheurs en ce domaine ont suggéré des courants plus viables et tenaces de ceux qui existaient , en vue de résoudre les problèmes de cette ère.

Cependant on ne peut pas nier qu'il y avait des tentatives considérables faites dans ce sens et qui commençaient à donner ses fruits, notamment les études qui relient les questions du jour avec la Charia et la pensée.

Cette tendance est considérée comme un catalyseur vers une réflexion plus approfondie pour découvrir la tendance de législateur, et un point de redémarrage vers un développement de pensée islamique conformément aux changements.

C'est de ce dernier point, que l'intervenante a essayé à partir de son modeste article, de montrer la contribution de (Maquassed El Charia) dans la formulation d'une nouvelle théorie du développement durable de point de vue islamique .

Vue l'importance de ce sujet, on a essayé d'aborder quelques éléments qu'on a jugé importants pour le couvrir.

Le début c'était avec la présentation conceptuelle des mots clés de notre intervention qui sont ; le développement ,le développement durable et Maquassed El Charia.

En suite on a met l'accent sur la nécessité de maitriser EL Maquassed , condition inévitable pour introduire la nouveauté dans la pensée islamique et assurer un bon encadrement aux sujets de notre ère .

Dans le même ordre d'idée on a discuté l'approche El Maquassed pour le développement durable toute en indiquant les initiatives prisent dans ce sens et qui convergent tous vers l'unification des fins d'EL Maquassed dans le cadre de développement durable.et on a fini par discuter le système de priorité dans l'Islam en tant qu'un levier du développement durable de point de vue Islamique.

Mots clés : développement,développement durable, Maquassed El Charia

تمهيد:

الإسلام نظام حياة لأنه من وضع الخالق سبحانه وتعالى فلا يقابله ولا يدانيه أي نظام وضعي لأنه أكملها واشملها وأفضلها، طبق في فترة من التاريخ فكان تجربة فريدة من حيث أبعادها ونتائجها إذ اثبت التطبيق انه نظام عالمي المحتوى والفكر، علمي النظرة والتوجه، كفاء الأداء والانجاز، ولأنه كما يقول الدكتور عبد الحميد الغزالي جاء ليجمع بين الآخرة والأولى، وبين العبادات والمعاملات، إعمارا للأرض في ظل ثوابت دافعة لهذا الإعمار ومتغيرات تتشكل بفعل المكان والزمان وفي ظل علم وعمل يرتفع إلى مرتبة العبادة بالمعنى الواسع .

واليوم وبعد أن نفص أكثر المفكرين المسلمين أيديهم من معركة الأنظمة الوضعية، وبعد أن تبين أن فشل العالم الإسلامي في تجاوز التخلف كان سببه المناهج المستوردة من الغرب والشرق، حدث اليقين بأنه لا بد من العودة إلى المنهج الإسلامي كطريق يقود المسلمين إلى النجاة بل وينبه غيرهم إلى النظر في المساهمات الإسلامية ومنه جاءت هذه المحاولة للربط بين التنمية المستدامة ومقاصد الشريعة الإسلامية مشاركة منا في التأكيد على ضرورة البدء في التأسيس لنظرة إسلامية في التنمية المستدامة، وإعطاء الفرصة للفكر الإسلامي للمساهمة في بناء المفهوم، ووضع تصورات لتطبيقاته على الواقع.

أولا : المفاهيم

مفهوم التنمية المستدامة:

أ – مفهوم التنمية المستدامة في الدراسات التنموية:

ظهر مفهوم التنمية المستدامة ضمن تشكيلة من المفاهيم الجديدة كالمجتمع المدني والاقتصاد الجديد، والحكم الراشد، وهي مفاهيم مؤطرة بصفة عامة في سياق موجة العولمة وتداعياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (1). (المأحي و العبيد 2008، ص 7)

وقد تطور هذا المفهوم في مجالاته و أوصافه تطورا كبيرا قبل أن يصل إلى المفهوم المتداول حاليا و أهم الأوصاف التي لحقت بهذا المفهوم والمراحل التي مر بها (2): (العجي، 2010 ص - ص 16-18)

* مرحلة غلبة الجانب الاقتصادي :ووصفت هذه المرحلة بالتنمية البشرية وعرفت بتعريفات عدة:

منها "إنها عملية توسيع خيارات البشر" على اعتبار إن البشر هم الثروة الحقيقية للأمم، وذلك وفق ما قرره برنامج الإنماء التابع للأمم المتحدة عام 1990 وكان لهذا التطور صلة بتجربة النمرور الأسيوية.

و من تعريفات التنمية الشائعة في هذه المرحلة أيضا -و التي تصدرت الإعلان العالمي عن الحق في التنمية- أنها "صيرورة شاملة اقتصادية اجتماعية وثقافية و سياسية تهدف إلى تحقيق تقدم مستمر في حياة جميع السكان و رفاهيتهم".

* مرحلة وصفها بالشاملة : و يقصد بها تلك العملية التي تشمل جميع أبعاد حياة الإنسان في المجتمع و تغطي جميع المجالات و جاء هذا الوصف (للتنمية) ليؤكد أن المرحلة السابقة لم تكن شاملة، و مع ذلك ظل هذا الوصف كسابقه أسير الأبعاد المادية و الاقتصادية في عملية تطوير المجتمعات.

وكان ابرز نقد وجه إلى هذا المفهوم "التنمية الشاملة"، هو أنها ظلت تؤصل تبعية نموذج العالم الثالث للنموذج الغربي، و تبرر استنزاف موارده، و استعمار به بدعوى تطوير قدرات شعوبه و تنميتها.

* التنمية المستقلة: جاء هذا الوصف علاجاً للوضع الذي كرسه الوصف السابق " الشاملة " : و كان يراد بالتنمية المستقلة: التي تحقق لكل بلد نموه مستقلاً عن التأثير و التبعية ، غير أن هذا الوصف لم يسلم من نقد الباحثين الذين قالوا و إن كان هذا المفهوم قد عالج قصوراً لوحظ في المفاهيم السابقة إلا أنه لم يحقق المراد.

* التنمية المستدامة: وهي آخر طبعة للتنمية التي توصف بأنها : "خطوة مهمة في الاتجاه الصحيح، و اعتراف ضمني بالتصور الإسلامي لإشكالية التنمية، فعلماء الإسلام المهتمون بالفكر الاقتصادي اجمعوا على أن التنمية الحقيقية هي التي تقوم في المقام الأول على الركيزة الأخلاقية و ذلك لضرورة مراعاة هذا البعد النبيل في كل المحطات الاقتصادية التي يعبرها الاقتصاد التقليدي محرك التنمية بمعناها البعد الاقتصادي الصرف (الإنتاج، الاستهلاك، التداول) وقمة هذا البعد الأخلاقي تكمن في اختزاله لمعان إنسانية رفيعة و ترتب عنه سلوكات و ممارسات راقية هي ما يبحث عنه اليوم دعاة التنمية المستدامة " (3) (عصمة، 2010/09/03)

و على الرغم من هذا التوجه المحمود للتنمية و الملموس في التنمية المستدامة إلا أن هناك ملاحظات كثيرة حول هذا المفهوم، و التي لا تنتقص من ايجابية هذا التوجه و لكن ترشده على أساس انه مفهوم مازال يتبلور و يتشكل، و أيضاً لأنه مفهوم طنان تغني به العالم اجمع في بدايات هذا القرن، و يؤكد ذلك الكم الهائل من البحوث و الكتب و المقالات و مراكز البحث العلمي و المؤسسات و المنظمات الدولية و الأوروبية، بل و حتى الدول المنشغلة بقضية التنمية المستدامة، و يمكن تأكيد كل ذلك بكتابة الكلمتين الانجليزيتين sustainable development أو "التنمية المستدامة" في محرك البحث في موقع غوغل بالانترنت. (4) (بريمة، 2004، ص ص 51-50)

ومن الملاحظات البارزة لمفهوم التنمية المستدامة انه لم يأت استجابة لمشاكل التنمية في الدول النامية فحسب، بل كان استجابة بصورة اكبر للنتائج الكونية السالبة لتطبيقات النموذج الغربي الرأسمالي لذلك فان المفهوم يعني حسب ما ذهب إليه البروفيسور محمد الحسين بريمة (5) (بريمة، 2004، ص 51).

في معناه الإجرائي: "أن يقاس تقدم أو تخلف أي دولة غنية أو فقيرة على أساس معايير الاستدامة في التنمية". و التعريف الأشهر الذي يورده معظم الباحثين في هذا المجال هو التعريف الذي ورد في تقرير لجنة برنديلاند Rapport Brundtland الذي وضعته المفوضية الدولية للبيئة و التنمية عام 1987 والذي مفاده: أن التنمية المستدامة هي التنمية التي تلي حاجات الأجيال الحالية، دون أن تعرض للخطر قدرة أجيال المستقبل على تلبية حاجاتهم و بعد النقاش الكبير الذي تعرض له التقرير، تبلورت قضايا التنمية المستدامة في إطار النموذج الرأسمالي في مايلي:

- القضية الاقتصادية.

- القضية الاجتماعية.

- القضية البيئية.

و مع الإقرار بالجهود المبذولة من أجل تقديم تعريف عملي متفق عليه إلا أن بعض الباحثين يقول أن مفهوم التنمية من المفاهيم التي يكتنفها الكثير من الغموض و اللبس و في هذا الصدد فقد قام الكثير من الاقتصاديين -

خاصة مع تزايد الاهتمام بهذا المفهوم- قاموا بمحاولات كبيرة لتقديم تعريف أو تفسير لمفهوم التنمية المستدامة وكانت التعريفات تصب في اتجاهين رئيسيين: (6) (المحي، ص11)

* تعريفات مختصرة: مثل: "التنمية المستدامة هي التنمية المتجددة والقابلة للاستمرار"
و"التنمية المستدامة هي التي لا تتعارض مع البيئة"

و"التنمية المستدامة هي تلك التي تقنع مبدأ لانهاية الموارد الطبيعية و مثل هذه التعريفات تفتقد إلى الأعماق و هي اقرب إلى الشعارات منها إلى التعريفات التي تعطي المعنى الوافي لمفهومالتنمية المستدامة".

* تعريفات أكثر شمولاً: مثل التعريف الذي سبق سوجه، و التعريف الذي يقول إن "التنمية المستدامة هي تنمية اقتصادية و اجتماعية متوازنة و متناغمة، تعني بتحسين نوعية الحياة مع حماية النظام الحيوي"، وقد سبقت الإشارة إلا أنه مع التسليم بان التعريف المقدم من طرف لجنة برناتلاند هو الأكثر شمولاً، لكن هناك ملاحظات عليه سبق ذكر الأولى، و الثانية أنه على الرغم من أن تلبية الحاجات و الطموحات الأساسية للبشرية هي الهدف الأساسي إلا أن ذلك لم يتحقق على ارض الواقع.

- و مع مراعاة التطور التاريخي للمفهوم يمكن إضافة تعريفات أخرى مثل تعريف مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة - ريودي جانيرو 1992 الذي يقول: "إدارة الموارد الاقتصادية بطريقة تحافظ على الموارد البيئية أو تحسينها لكي تمكن الأجيال المقبلة من أن تعيش حياة كريمة أفضل"، كما تعرف بأنها "التنمية التي تكفل خدمة الأجيال الحالية بشكل لا يضر أو يمس مصالح الأجيال القادمة".

وعلى بعض الباحثين بأنه ليس هناك اتفاق حول تعريف التنمية المستدامة ومع ذلك أمكن تلخيص التعريفات في تعريف يعتقد صاحبه أنه شامل وهو:

"الإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية المتاحة بشكل يكفل الرخاء الاقتصادي والاجتماعي وتحقيق الاحتياجات الإنمائية والبيئية للأجيال الحالية والمقبلة" (7) (المجلس الأعلى للتربية، ص60)، وقد تشعبت تعريفات التنمية المستدامة بحسب المجالات والمذاهب والأقاليم فجاء تعريف التنمية في ضوء المنظور العربي مثلاً كما يلي: "التنمية المستدامة هي النهوض بالمستوى المعيشي للمجتمع العربي بأسلوب حضاري يضمن طيب العيش للناس ويشمل: التنمية المطردة للثروة البشرية والشراكة العربية على أسس المعرفة والإرث الثقافي والحضاري والترقية المتواصلة للأوضاع الاقتصادية على أسس المعرفة والابتكار والتطوير واستغلال القدرات المحلية والاستثمار العربي والقصد في استخدام الثروات الطبيعية مع ترشيد الاستهلاك وحفظ التوازن بين التعمير والبيئة و بين الكم والكيف" (8) (مركز الإنتاج الإعلامي جامعة الملك عبد العزيز، 1427هـ، ص46)

ولو حاول الباحث الإمام بكل التعريفات المتعلقة بالتنمية فان الطرق ستتشعب به لكثرة هذه التعريفات، لذلك ننتقل إلى مدخل آخر لتعريف التنمية المستدامة وهو المدخل الإسلامي مراعاة للخصوصية، والانتماء وتقديراً للجهود المبذولة في هذا الإطار والتي لا يُستهان بها .

ب- مفهوم التنمية المستدامة من وجهة نظر إسلامية:

لقد تأكد من خلال مناقشة و عرض التعريفات المختلفة للتنمية المستدامة أن ادعاء الحياد عند تناول المفهوم أكذوبة، بل أصبح مفروغا منه أن أي تعريف يجب أن ينطلق من منطلقات المجتمع الذي يصدر فيه و من أجله، ولأننا مسلمون ينبغي أن نقدم مفهوماً للتنمية يتماشى مع النظرة الإسلامية للكون و الحياة و الإنسان، وذلك بالاعتماد على المصادر الأولية للشريعة الإسلامية، ومن التعريفات التي قال عنها صاحبها " حسين إبراهيم الهنداوي " (9) (بن إبراهيم الهنداوي، أفريل 2008، ص: 26) أنه تعريف ينسجم مع النظرة الإسلامية للكون و الحياة و الإنسان فضلاً عن استيعابه مجالات التنمية جميعها، بعيداً عن أي تأثيرات غريبة عن تعليم الإسلام، و مفاد هذا التعريف "

أن التنمية من منظور إسلامي تعني عملية تطوير و تغيير قدر الإمكان نحو الأحسن فالأحسن و تكون مستمرة و شاملة لقدرات الإنسان و مهاراته المادية و المعنوية تحقيقا لمقصود الشارع من الاستخلاف في الأرض، برعاية أولى الأمر ضمن تعاون إقليمي و تكامل أممي بعيدا عن أي نوع من أنواع التبعية " ومن خلال هذا التعريف يتأكد أن التنمية في التصور الإسلامي عبارة عن عملية حضارية مستحدثة و أن هذه العملية لا تتم بين يوم و ليلة بل تأخذ زمنا طويلا، و هي أيضا عملية لا تتوقف عند تحققها بل لا بد من المحافظة عليها و تحقيق المزيد منها و بذلك تكون التنمية عملية مستمرة نحو الأحسن فالأحسن و خاصية الاستمرارية والديمومة في مفهوم التنمية نابع من النظرة الإسلامية للكون والحياة والإنسان فالإنسان خلقه الله ليكون خليفة له في الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (10) (سورة البقرة/ الآية 30)

و هو استخلاف لا مجال فيه للعبث و إضاعة الوقت فيما لا ينفع ﴿أَيُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (11) (سورة القيامة/ الآية 36) و هذه النظرة السامية للحياة مبنية على التصور القرآني لخلق هذا الكون و انه ليس للعبث .

كما جاء في قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (12) (سورة الدخان / الآية 38) و إذا كان الإنسان لم يخلق سدى و لا الكون خلق عبثا فلا بد أن يستثمر الإنسان حياته للتنمية ما في الكون وهو ما يعرف بالتعمير مصداقا لقوله تعالى ﴿..هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (13) (سورة هود/ الآية 61) و التعمير مرادف للاستخلاف الذي أنيط بالإنسان و هو يطبقه لأن الله يسر له ذلك، و سخر كل ما في الكون و ذل له الأرض تذليلا، و هو القائل عز و جل ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِي الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (14) (سورة الجاثية/ الآية 12-13)

أثبتت الدراسات أن الأمة الوحيدة التي تملك إمكانات بلورة تنمية مستدامة و متكاملة و متزنة هي امة الإسلام لأنها وحدها التي تملك أصول رؤية منهجية مطلقة و راشدة حباها الله بها، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (15) (طه/ 50) و لا ينبغي أن يفهم من هذا أننا نملك خططا للتنمية متكاملة، فقد اقتضت حكمة الابتلاء أن يملكنا الله جل و علا الأرضية و المنهجيات و الأهداف الكبرى و أن يترك لنا البحث عن الأساليب و الوسائل و تقسيم المراحل و إقامة الموازنات و مراجعة الخطوات و رسم السياسات و كل ما من شأنه التفاعل ضمن الإطار العام و المعالم الأساسية التي زودنا بها. (16) (بكار، 1999، ص ص 26-27).

يؤكد معظم من تناولوا هذا المفهوم في التصور الإسلامي بان التنمية في حقيقتها هي عملية حضارية لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان و كرامته وهي أيضا بناء للإنسان و تحرير له و تطوير لكفاءاته و إطلاق لقدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع و تنميتها و حسن تسخيرها. (17) (العسل) و جدير بالذكر أن هناك جهود كبيرة بذلت في هذا المجال للمساهمة في تقديم التصور الإسلامي للتنمية المستدامة، و إن لم يرتق إلى صياغة نظرية تجابه النظرية الرأسمالية و الاشتراكية إلا أنها تشكل أرضية جادة لها إذا تضافرت الجهود يمكن الانتهاء إلى صياغتها و تقديمها كبديل.

2- تعريف مقاصد الشريعة الإسلامية:

لقد جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد الدنيوية و الأخروية و جاءت أيضا لتحقيق إصلاح شؤون الناس في العاجل و الآجل و شرعت من الأحكام ما يناسب ظروف كل عصر وحاجاته مع مراعاة الغايات و المقدمات و

النتائج (18) (بن يعقوب المفتاح، 2012، ص.1)، وعلى هذا الأساس من الجدير معرفة مفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية حتى يتسنى التأسيس عليها وفق رؤية علمية ومنهجية محكمة. من تعريفات مقاصد الشريعة: "أنها المعاني السامية والحكم الخيرة والغايات الجيدة التي ابتغى الشارع الحكيم تحقيقها والوصول إليها من النصوص التي وردت عنه أو الأحكام التي شرعها الله لعباده" (19) (بن يعقوب المفتاح، 2012، ص.4)، وقد علق صاحب هذا التعريف بأنه مبني على استقراء تام للنصوص الشرعية من جهة ولمصالح الناس من جهة ثانية.

عُرفت مقاصد الشريعة "بأنها المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، وتدخل في ذلك أوصاف الشريعة وغاياتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها..."، وحتى يكون لمفهوم المقاصد الشرعية أهميته ودلالته في التنمية المستدامة "موضوع الدراسة" ينبغي مراعاة ضوابط إعمال المقاصد مثل: التحقق من صحة المقصد المراد إعماله، وتحديد درجة المقصد ومرتبته، وحصول إعمال المقاصد ممن هو أهل للنظر والاستدلال، والجمع بين الجزئيات والكليات، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والتحقق من مآلات المقاصد ومراعاة في كل مجال خصوصياته وقواعده الكلية وأخيراً عدم معارضة إعمال المقاصد للنصوص. (20) بن أحمد اليوبي، رجب 1431 هـ، ص ص 63 - 64

ثانياً: أهمية العلم بمقاصد الشريعة:

إن مقاصد الشريعة هي الكلمة الجامعة لمعنى البصيرة في وضع الشريعة واكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها، فيها تتحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد. (21) (بن نصير، 2006). من هنا تتأكد أهمية العلم بمقاصد الشريعة والتي لا ينبغي إن تقتصر على المختصين في العلوم الشرعية ترشيداً لأنظارهم واجتهاداتهم الفقهية - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان - بل هذا العلم بالغ الأهمية لكل مسلم مهما كان اختصاصه العلمي ومهما كان نشاطه في الحياة العلمية، ذلك إن علمه بالمقاصد من شأنه أن يرشد ما يكون له نظر في علمه وما يكون له من تطبيق في عمله ليصير كل ذلك موافقاً للحكم الشرعية، وإذا كان ذلك أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لكل مسلم فإن التفاوت في الانتفاع به، يتفاضل فيه الأفراد فيه حسب حظوظهم الثقافية ولكنه يبقى هدفاً ينبغي على كل مسلم السعي إلى تحقيقه بقدر الإمكان. (22) (عثمان التويجري، 2012، ص.3) استشعر المسلمون منذ وقت مبكر أهمية العلم بمقاصد الشريعة فوجهوا إليها عناية علمية فائقة واهتموا بها أيما اهتمام وإننا لنحسب أن اهتماماتهم لذلك لم يكن له نظير في أي قانون أو شريعة دينية، وقد شهد منذ فترة قليلة اهتماماً متزايداً من قبل الباحثين والدارسين والمؤلفين فأصبح يتدعم يوماً بعد يوم ويتطور باطراد. (23) (النجار، 2008، ص.21).

تظهر أهمية مقاصد الشريعة وفقها أيضاً في أنه يمكن التفريق بين النصوص الثابتة القطعية والمتغيرة الظنية وما يبني على ذلك من فتاوى وأحكام منها الثابت الذي لا يحتمل التغير، ومنها المتغير الذي يتغير حسب الزمان والمكان والأحوال إذا علم ذلك من خلال فقه المقاصد فإننا نعرف مدى العلاقة بين فقه الأولويات وفقه المقاصد. (24) (عبادة علي الكربولي، 2008، ص.36)

ثالثاً: التنمية المستدامة مقارنة مقاصدية

لقد سبقت الإشارة إلى إن القصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها وصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض واستنباط خيراتها وتدير لمنافع الجميع، وعمارة الأرض مفهوم شامل ويمكن أن تكون التنمية الشاملة المستدامة هي التعبير المعاصر لعمارة الأرض. (25) (عثمان التويجري، 2012، ص.2)

إذا كان الأمر كذلك فإنه من الطبيعي أن يتأسس مفهوم التنمية المستدامة عند المسلمين على مقاصد الشريعة الإسلامية إذ في ظل التطورات الشاملة والمتسارعة التي تعيشها الإنسانية في هذا العصر، تولد قضايا ومشاكل في التنمية، تطرح أسئلة كثيرة أمام المسلم فيتطلع إلى مخرج من الأزمة الحضارية التي يجد نفسه مقحما في دائرتها، و يتوجه إلى من يفتيه في دينه، ويجيب عن أسئلته، ويندد الغيوم التي تحجب عنه الرؤية إلى الأمور من منظور إسلامي، وتخرجه من دوامة القلق والحيرة والارتباك ليعيش حياته في سكينه وطمأنينة ورضا بحكم الشرع، والله تعالى انزل كتابه الكريم على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، رحمة بعباده أجمعين وهداية لهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (26) (سورة النحل/ الآية 89) وهو ما يؤكد منهج التسيير ورفع الحرج عن الناس في حياتهم الدنيوية وهو ما تقصد وترمي إليه التنمية المستدامة ويبرر تأسيسها على مقاصد الشريعة الإسلامية.

إلا أن البعض يرى التأسيس على مقاصد الشريعة بأنها فكرة حيوية ولكن فعاليتها محدودة بالنظر إلى ما وصلت إليه الاجتهادات في هذا الموضوع وهذا ما جعل بعض العلماء ينادون بفكرة التجديد في مقاصد الشريعة حتى تستطيع أن تكون القاعدة الصلبة التي يؤسس الفكر التنموي الإسلامي عليها ويكون بذلك جديرا بان يقدم مساهمته في الموروث الإنساني كما قدمه علماء السلف ولما لا يقدم بديلا عن المفاهيم التنموية السائدة التي ومع تخلصها من السلبات ومحاولة سد الثغرات وتدارك النقائص لا يزال أمامها الكثير حتى تقترب من الرؤية الصحيحة للتنمية والتقدم.

التجديد المطلوب ليس من قبيل التطوير، وإنما المراد به إحياء المقاصد الشرعية وتوسيع مجالاتها وتفعيلها في حياة الفرد والمجتمع لتحقيق الخير والصالح والفلاح للناس في الحال والمآل، وإن في الموروث الذي كتب في مقاصد الشريعة الإسلامية ما يعتمد عليه حتى نقوم بعملية الإحياء والبعث فهذا الشيخ محمد الفاضل بن عاشور العلامة التونسي ابن العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، يؤكد ذلك فيقول: لقد بنى الإمام الشاطبي بتأليفه للموافقات هرما شامخا للثقافة الإسلامية استطاع أن يشرق منه في قرننا والقرن الذي قبلنا - لما أشكلت على العالم الإسلامي عند نهضته من كبوته - أوجه الجمع بين أحكام الدين ومستجدات الحياة العصرية وكان كتاب الموافقات هو المرجع الذي قدم تصورا لما يقتضيه الدين من استجلاب المصالح وتفصيل طرق الملازمة بين حقيقة الدين الخالدة وصور الحياة المختلفة المتعاقبة، مصرحا انه حمل الناس على الوسط الذي هو مجال العدل والاعتدال، واخذ المتخلفين على الطريق المستقيم بين الاستصعاد والاستنزال ليخرجوا من انحراف التشنج والانحلال. (27) (بن عاشور، 2000).

وهذا التوجه في إحياء وتجديد مقاصد الشريعة الإسلامية هو الذي يساعد في إبراز البعد التنموي لمقاصد الشريعة الإسلامية - رغم أن هناك من يقول بان البحث في هذا المجال من الترف الفكري، لأنه بحث في الضرورات العملية، التي لا جدوى من البحث عنها، وإنما يبرر هذا التوجه غياب المحفز المعنوي والديني لمباشرة العمل التنموي بكافة أبعاده، فرغم مرور ما يزيد على القرنين من الزمن على النهضة الأوروبية، وبداية الوثبة التنموية، لم تظهر مؤشرات جدية، لدى الأجيال المتعاقبة من الفقهاء والمسلمين لصياغة أو بالأحرى لاستنباط فقه خاص بالتنمية، ثم إن خوض التنمية من باب المقاصد لا يعني أن مجرد وعيها ومعرفتها سيجعلها أمرا محققا، فثمة شروط أخرى يجب أن تتوافر وهي:

دور الدولة، ومستوى المعرفة، والإرادة الحضارية، والثقافية وغيرها. (28) (النجار، 2008)، وبناء الفكر التنموي على مقاصد الشريعة يحقق فوائد عظيمة منها:

- استجابة هذا الفكر لحاجات كل عصر و كل زمان و مكان لواقعية المقاصد التي بني عليها وتوازنها و صلاحيتها " إن كل شيء خلقناه بقدر "

- تجلي التصور الكامل للإسلام، و وضوح الصورة الشاملة للأحكام، و بذلك يعرف ما هو من الشريعة و ما هو ليس منها، فكل ما يحقق مصالح الناس (من ضرورات و حاجيات و تحسينيات) في العاجل و الآجل و وفق الضوابط الشرعية هو من الشريعة و كل ما يؤدي إلى الفساد و الضرر و المشقة و الاضطراب فهو ليس من الشريعة و ينبغي تركه.

- إدراك أن نصوص الشريعة الإسلامية و أحكامها معقولة المعنى، و مبنية على النظر والاستدلال، و هو ما يؤدي إلى اقتناع المسلم - و غيره - بالخلفية الإسلامية و بالضبط المقاصدية للتنمية المستدامة.

- إن التأسيس المقاصدي يجعل الفكر التنموي يعتمد على الفهم الصحيح للنصوص الشرعية وبالتالي تفسيرها بشكل صحيح عند التطبيق في الواقع.

- تفادي اصطدام البرامج و الاستراتيجيات التنموية مع الفطرة، لان مقاصد الشريعة و أهدافها تنسجم مع هذا الأساس. (29) (بن يعقوب المفتاح، 2012، ص- ص. 98 - 10)

رابعا : نظام الأولويات في الإسلام كمقوم للتنمية المستدامة:

وننتهي في هذا الجزء من المقال إلى أن التطورات التي تعرفها المجتمعات الإسلامية والتحولت التي يعيشها العالم في هذا العصر على نحو لا يقاس بما مضى من تغيرات، تقتضي أن تركز التنمية المستدامة على مقومات رصينة أرضيتها مقاصد الشريعة وان يكون الاستنباط في ضوء هذه المقومات وعلى رأسها نظام الأولويات الذي ينبغي أن يكون قاعدة ثابتة.

تعتبر الرؤية المقاصدية - بحق - أحد أهم محاضن فقه الأولويات، ذلك أن ترتيب المقاصد حسب الأهمية من ضروري إلى حاجي إلى تحسيني يفيد في وضع أجندة واضحة لأولويات التنمية المستدامة من منظور إسلامي، ولذلك كان التأكيد على التأسيس المقاصدي، وبعد التسليم بأن التنمية من منظور إسلامي تكون شاملة ومستدامة في كل المجالات، فلا يمكن أن تحدث في مجال معين مع تخلف أو إهمال للمجالات الأخرى، وجب بذلك ترتيب هذه المجالات من حيث الأولوية، بحيث يتم تقديم الأهم فالأهم، و الأنفع فالأنفع، مع التسليم بأهميتها و نفعها جميعا. (30) (بن إبراهيم الهنداوي، 2008، ص. 34)، وارتكاز التنمية المستدامة على نظام الأولويات في الإسلام يعصم الأمة من الفساد و التلاشي، لأنها تستقدم المصالح الضرورية التي لا يستقيم النظام باختلالها، و ذلك لما قد يحصل من تفاني بعضها ببعض أو تسلط العدو عليها إذا كانت بمرصد من الأمم المعادية ... كما قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. (31) (بن عاشور، 2000، ص. 116)

من ابرز المساهمات التي تفيد ارتكاز التنمية المستدامة على نظام الأولويات في الإسلام، ما ذهب إليه مالك بن نبي حين لخص منظومة أفكاره في الاقتصاد في ضرورة الرجوع إلى المرجعية العقائدية الإسلامية لإعادة بناء الحضارة، و إعادة نظام الأولويات إلى نصابه و ذلك بإبراز دور الاستخلاف للمسلم كفرد وكمجتمع، ثم ضرورة التوافق بين مقاصد الشريعة الإسلامية التي تولي ضبط الموارد البشرية أولوية على الموارد الأخرى، و بناء على ذلك و بعد أن تأكد بأن الإنسان هو هدف التنمية و محورها، بوصفه الكائن الوحيد في هذا الكون القادر على إحداث تغيير و تطوير و القيام بعملية تنموية لما في الكون و ليس من وسيلة تؤهله للقيام بهذه العملية أفضل و أولى من التعليم، و من ثمة فلا غرابة أن يكون للتنمية التعليمية الأولوية المطلقة، و مما يزيد التعليم أولوية من حيث التقديم و الاعتناء به انه يعد التنمية الأم لبقية المجالات التنموية، فتعليم الإنسان المسلم و تربيته يعده للقيام بالعملية التنموية في أي مجال (اقتصادي، أو اجتماعي، أو بيئي).

في الأخير، فإن فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة الإسلامية من المقومات الأساسية للتنمية المستدامة لأنه إذا غاب عن واقع المسلمين يتسبب في خلل كبير في ميزان الترتيب، فيصغر الكبير و يكبر الصغير و يحقر الخطير، و يهتم بالحقير، ويتجادل في السنن و الهيات و تترك الفرائض والواجبات و يهتم بالجزئيات على حساب التقصير في الكليات، و يهتم بالمتغيرات و يهمل الثوابت. (32) (عيادة علي الكربولي، مرجع سابق، ص.7)

خاتمة:

يتضح لنا من خلال مناقشة الموضوع إن العملية التنموية في منظور مقاصد الشريعة تنشأ عن التفاعل بين المتغيرات المكونة للظاهرة الاجتماعية في الرؤية الإسلامية، و هي : الإيمان أو العقيدة أو الدين، النفس، العقل أو العلم، المال و النسل، لذلك مثل البروفيسور محمد الحسين بريمة هذه العملية بالشجرة الطيبة، و مثل للأصل الثابت فيها بالنفس و الإيمان، فالنفس هي التربة الصالحة التي تجذر فيها الإيمان ثم تشعب أخلاق و تقوى، و العلم في دوريه العقدي والوظيفي، هو الساق التي تربط بين الجذور و الفروع، و المال و البنون هما الفرعان الرئيسيان اللذان تنبثق منهما الأغصان و الأوراق، و يمكن النظر إلى الأغصان باعتبارها مؤسسات المجتمع، و الأوراق هي العمل الصالح الممتد في البيئتين الطبيعية و الاجتماعية و نتيجة هذه العملية التنموية الأكل الطيب الذي يدوم بدوام هذا التفاعل. (33) (بريمة، 2004، ص.69)

كما ننهي أنه إذا كنا نسعى إلى استدامة التنمية و فلاح المجتمع، فينبغي أن نعتقد جازمين بأن الإسلام كان سابقا في مفاهيم التنمية المستدامة و الرؤية المنبثقة عن عقيدة الإسلام كفيلة بذلك الحفاظ المتعلق بالمقاصد، و الذي تحدث عنه علماء الإسلام فقالوا لا يعني بالضرورة بقاء ما تحقق من المقاصد على وضعه الراهن فالمحافظة على الوضع تأتي بعد بلوغنا الذروة و إذا كان ذلك غير ممكن في نطاق القدرة البشرية في هذه الدنيا، فهناك دائما متسعا للتحسين مما يضمن الاستدامة. (34) (شابرا ، محمد عمر، 2011).

الهوامش

- 1- الماحي، ضرار و العبيد، احمد (أفريل 2008)، نشأة و تطور مفهوم التنمية المستدامة، مجلة أوراق بحثية، الخرطوم: مركز التنوير البحثي، العدد الخامس.
- 2- العجي، أبو اليزيد أبو زيد، ط: 1، (2010) التأصيل الشرعي للتنمية الذاتية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. ص ص 16- 18
- 3- عصمة. الحسين، (2010/09/03) التنمية المستدامة، الكويت: مجلة الوعي الإسلامي وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية، العدد 532 .
- 4- بريمة، محمد الحسن، (2004)، التنمية المستدامة تأسيس مقاصدي، الخرطوم: مركز التنوير المعرفي. ص ص 51-50
- 5- المرجع نفسه. ص 51
- 6- الماحي، ضرار ، مرجع سابق.
- 7- التنمية المستدامة، قطر: المجلس الأعلى للتربية، ص 60.
- 8- التنمية المستدامة في الوطن العربي بين الواقع والمأمول، (1427هـ)، سلسلة نحو مجتمع المعرفة، السعودية: مركز الإنتاج الإعلامي جامعة الملك عبد العزيز، الإصدار الحادي عشر، ص 46.
- 9- بن إبراهيم الهنداوي، حسين، (أفريل 2008)، مجلة أوراق بحثية، الخرطوم: مركز التنوير المعرفي، العدد الخامس.
- 10- سورة البقرة/ الآية 30.
- 11- سورة القيامة/ الآية 36.
- 12- سورة الدخان/ الآية 38.
- 13- سورة هود/ الآية 61.
- 14- سورة الجاثية / الآية 12-13.
- 15- سورة طه / الآية 50.

- 16- بكار، عبد الكريم، ط 1: (1999)، مدخل إلى التنمية المتكاملة رؤية إسلامية، دمشق: دار القلم.
- 17- العسل، إبراهيم، التنمية في الإسلام مفاهيم مناهج وتطبيقات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. على الرابط: www.almostafa.com
- 18 - بن يعقوب المفتاح، فريد، (2012)، مقاصد الشريعة الإسلامية في ضوء مستجدات العصر، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين. على الرابط: www.islamfekh.com
- 19- المرجع نفسه.
- 20- بن احمد اليوبي، محمد سعد، (رجب 1431 هـ)، ضوابط إعمال مقاصد الشريعة في الاجتهاد، مجلة الأصول والنوازل، العدد الرابع.
- 21- بن نصير، محمد، (أوت 2006) المقاصد الشرعية بين حيوية الفكرة ومحدودية الفعالية، بحث قدم إلى الندوة العالمية عن الفقه الإسلامي وأصوله وتحديات القرن الواحد والعشرين، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.
- 22- عثمان التويجري، عبد العزيز، (2012)، التجديد في المقاصد الشرعية في الرؤية الإسلامية الحضارية، ماليزيا: أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين. ص 3، على الرابط: www.hslamfekh.com
- 23- النجار، عبد المجيد، (2008) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، بيروت: طبعة دار الغرب الإسلامي الثانية.
- 24- عيادة علي الكربولي، عبد السلام، ط 1:، (2008)، فقه الأولويات في ظلال مقاصد الشريعة، دمشق: دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 25- عثمان التويجري، عبد العزيز، مرجع سابق.
- 26- سورة النحل، الآية 89.
- 27- بن عاشور، محمد الفاضل، (2000) أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب الغربي، تونس: مركز النشر الجامعي.
- 28- النجار، عبد المجيد، مرجع سابق.
- 29- بن يعقوب المفتاح، فريد، مرجع سابق.
- 30- بن إبراهيم الهنداوي، حسين، مرجع سابق.
- 31- بن عاشور، محمد الفاضل، مرجع سابق.
- 32- عيادة علي الكربولي، عبد السلام، مرجع سابق.
- 33- بريمة، محمد الحسن، مرجع سابق.
- 34- شايرا، محمد عمر، (2011)، الرؤية الإسلامية للتنمية في ضوء مقاصد الشريعة، ترجمة محمود احمد مهدي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.